اطفال الماء

The Water-Babies

٣ — السيدة العجوز

نَشَجَ تُومْ ، عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا أَلَمَّ بِهِ مِنْ جُوعٍ وَعَطَشٍ ، وَضَعْفٍ وَإِعْيَاءٍ ، وَنَزَلَ مُنْحَدِراً مِنْ أَعْلَى التَّلِّ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْوَادِي ؛ وَقَدْ أَنْهَكَ التَّعَبُ قُوَاهُ ، وَذَهَبَ مُتَثَاقِلاً إِلَى أَنْ بَلَغَ بَابَ الْكُوخِ ، فَإِذَا هُوَ مَنْزِلٌ قَرَوِيٌّ بَدِيعٌ ؛ تَمْتَدُّ عَلَى جُدْرَانِهِ فُرُوعُ الْوَرْدِ وَاللَّبْلَابِ ، وَتُحِيطُ بِحَدِيقَتِهِ أَشْجَارُ السَّرْوِ الْبَاسِقَةُ ؛ وَأَطَلَّ بِرَأْسِهِ مِنَ الْبَابِ ، وَهُوَ خَائِفٌ وَجِلٌ ، فَأَبْصَرَ سَيِّدَةً عَجُوزاً ، جَالِسَةً بِجِوَارِ الْمِدْفَأَةِ ، وَمُرْتَدِيَةً مِئْزَرَةً حَمْرَاءَ ، وَمِئْزَراً أَبْيَضَ ، وَقُبَّعَةً حَمْرَاءَ ، وَعِنْدَ قَدَمَيْهَا قِطَّةٌ ، وَأَمَامَهَا عَدَدٌ مِنَ الْأَطْفَالِ الصِّغَارِ ، يَتَعَلَّمُونَ حُرُوفَ الْهِجَاءِ ، فَلَمَّا لَمَحُوا تُومْ بِثِيَابِهِ الرَّثَّةِ وَجِسْمِهِ الْأَسْوَدِ الْقَذِرِ ، حَمْلَقُوا فِيهِ مَبْهُوتِينَ ، وَصَاحَتْ فِيهِ السَّيِّدَةُ قَائِلَةً : « أَ كَنَّاسُ مَدَاخِنَ أَنْتَ ؟ ! ! إِلَيْكَ عَنِّي ، فَإِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَرَى أَمْثَالَكَ هُنَا ! ! » فَمَالَكَ تُومْ نَفْسَهُ ، وَقَالَ بِصَوْتٍ ضَعِيفٍ : « قَلِيلاً مِنَ الْمَاءِ يَا سَيِّدَتِي . » فَأَجَابَتْهُ قَائِلَةً : « عَلَيْكَ بِالْغَدِيرِ فَفِيهِ مَاءٌ كَثِيرٌ ! »

وَكَانَ تُومْ قَدِ اشْتَدَّ بِهِ الضَّعْفُ ، فَقَالَ : « ارْحَمِينِي يَا سَيِّدَتِي ، فَإِنِّي لَا أَقْوَى عَلَى السَّيْرِ لِشِدَّةِ مَا أُعَانِيهِ مِنَ الْجُوعِ وَالظَّمَإِ . » ثُمَّ خَانَتْ قُوَاهُ ، وَسَقَطَ عَلَى عَتَبَةِ الْبَابِ مُغْشِيًّا عَلَيْهِ ، وَتَأَمَّلَتْهُ السَّيِّدَةُ مِنْ

فأبصر سيدة عجوزا وأمامها عدد من الاطفال

خِـلَالِ مِنْظَارِهَا ، فَأَشْفَقَتْ عَلَيْـهِ ، وَقَالَتْ : « مِسْكِينٌ هٰذَا الطِّفْلُ ! » ثُمَّ أَحْضَرَتْ كُوبًا مِنَ اللَّبَنِ ، وَقِطْعَةً مِنَ الْخُبْزِ ، فَلَمَّا تَنَاوَلَهُمَا أَفَاقَ وَانْتَعَشَ ، وَسَرَدَ لَهَا قِصَّتَهُ ، فَطَيَّبَتْ خَاطِرَهُ ، وَأَشَارَتْ عَلَيْهِ بِأَنْ يَنَامَ قَلِيلاً لِيَسْتَرِدَّ قُوَاهُ ، وَحَاوَلَ النَّوْمَ عَبَثًا ، وَظَلَّ قَلِقًا يَتَقَلَّبُ عَلَى جَنْبَيْهِ

خلع ملابسه وغمس قدميه فى الماء

وَازْدَادَ بِهِ الضَّجَرُ ، وَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهُ اغْتَسَلَ فِي النَّهْرِ ، لِيُرَطِّبَ جِسْمَهُ السَّاخِنَ ، وَيُزِيلَ مَا عَلِقَ بِهِ مِنَ الْأَقْذَارِ ، فَقَامَ وَسَارَ بَيْنَ الْمُرُوجِ الْجَمِيلَةِ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى النَّهْرِ ، وَجَلَسَ عَلَى حَافَتِهِ يَتَأَمَّلُ الْمَاءَ يَجْرِي رَائِقًا كَالْبِلَّوْرِ ، وَالْحَصَى بِأَلْوَانِهِ الزَّاهِيَةِ الْبَدِيعَةِ يَلْمَعُ فِي قَعْرِهِ . ثُمَّ غَمَسَ يَدَهُ فِي الْمَاءِ ، وَأَحَسَّ بِبُرُودَةٍ مُنْعِشَةٍ لَذِيذَةٍ تَسْرِي فِي جِسْمِهِ ، فَخَلَعَ مَلَابِسَهُ الرَّثَّةَ الْقَذِرَةَ ، وَغَمَسَ قَدَمَيْهِ الْمُلْتَهِبَتَيْنِ فِي الْمَاءِ ، ثُمَّ سَاقَيْهِ الْمُتْعَبَتَيْنِ ، وَهٰكَذَا نَزَلَ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى غَمَرَ الْمَاءُ جِسْمَهُ .

وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ الإِرْلَنْدِيَّةُ قَدْ سَبَقَتْهُ إِلَى النَّهْرِ ، مِنْ دُونِ أَنْ يَرَاهَا ، وَلَمْ تَكَدْ تَغْطِسُ حَتَّى طَفَتْ مَلَابِسُهَا بَعِيدًا ، وَالْتَفَّتْ حَوْلَ جِسْمِهَا الْأَعْشَابُ الْخَضْرَاءُ ، وَأَحَاطَتْ بِرَأْسِهَا هَالَةٌ مِنَ النَّرْجِسِ الْمَائِيِّ الْأَبْيَضِ الْجَمِيلِ ، وَحَمَلَتْهَا مَلِكَاتُ الْمَاءِ فَوْقَ أَذْرُعِهَا ؛ ذٰلِكَ لِأَنَّهَا كَانَتْ مَلِكَتَهُنَّ جَمِيعًا ، وَقَدْ تَحَفَّتْ فِي زَيِّ امْرَأَةٍ إِرْلَنْدِيَّةٍ فَقِيرَةٍ ، وَمَا لَبِثَتْ أَنْ وَجَّهَتْ كَلَامَهَا إِلَى الْمَلِكَاتِ ، قَائِلَةً : « لَقَدْ أَحْضَرْتُ لَكُنَّ أَخًا صَغِيرًا ، غَيْرَ أَنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ يَرَاكُنَّ بَعْدُ ، بَلْ عَلَيْكُنَّ أَنْ تُحَافِظْنَ عَلَيْهِ حَتَّى لَا يُصِيبَهُ مَكْرُوهٌ »

وَلَمْ يَعِ تُومْ شَيْئًا مِمَّا كَانَ يَجْرِي حَوْلَهُ ، لِأَنَّهُ مَا كَادَ يَغْمُرُهُ الْمَاءُ حَتَّى اسْتَغْرَقَ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ ، حَيْثُ كَانَتْ مَلِكَاتُ الْمَاءِ قَدْ أَخَذَتْهُ فِي رِعَايَتِهَا ، وَجَاءَتِ السَّيِّدَةُ الْعَجُوزُ وَالسَّيِّدُ جُونْ يَبْحَثَانِ عَنْهُ ، فَلَمَّا وَجَدَا مَلَابِسَهُ عَلَى الشَّاطِئِ جَزِعَا وَحَزِنَا ، وَظَنَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ قَدْ مَاتَ ، فِي حِينِ أَنَّ تُومْ كَانَ قَدْ حَوَّلَتْهُ الْمَلِكَاتُ إِلَى طِفْلٍ صَغِيرٍ مِنْ أَطْفَالِ الْمَاءِ ، لَا يَزِيدُ طُولُهُ عَلَى قَلَمِ الرَّصَاصِ ، نَظِيفًا نَاصِعَ الْبَيَاضِ ، يَسْبَحُ وَيَمْرَحُ فِي الْمَاءِ ، هَانِئًا سَعِيدًا كَالْأَسْمَاكِ .

(يتبع)